

العبء الدولي رابع الزبير

للدكتور : محمد سيد محمد

الى الغرب من دارفور (في السودان) كانت تقوم في اواخر القرن التاسع عشر عدة دويلات اسلامية تخضع لحكم سلاطين يتفاوتون في القوة ودرجة الاستقلال ، وقد ارتبط تاريخها ارتباطا وثيقا بشخصية اسلامية عظيمة الأثر هي شخصية رابع الزبير .

وتاريخ هذه الدويلات يكتنفه الكثير من الغموض ، ولسنا نملك من المصادر التي تبحث في هذا التاريخ سوى القليل . ويكفى ان نشير الى ان مؤرخا فرنسيا دقيقا خلط بين هذه الدويلات وبين (دارفور) اذ قال أن عبد الله التعايشي خليفة محمد احمد المعروف بالمهدي في السودان قد عين احد اقربائه عاملا على كردفان ودارفور ، وانه منذ ذلك الحين امتدت سلطة الخليفة عبد الله الى وادى والبرقو والباقرمي (١) مع ان هذا لم يحدث اطلاقا ، فإن تاريخ تلك السلطنات الاسلامية ارتبط برابع الزبير ومشروعاته التوسعية اكثر من ارتباطه بعمال الخليفة في دارفور .

(1) Cocheris, J., Situation Internationale de l'Egypte et du Soudan (Juridique et Colitique), Paris 1903, p. 338.

وتكاد بحيرة تشاد ونهر شاري الذي يصب فيها ان يكونا مركزا لتلك السلطنات .
فعلى الضفة الشمالية للبحيرة ، كانت (الكانم) تحتل نصف دائرة تبلغ مساحتها
ثمانية آلاف كيلو مترا مربعا ، والقسم الشمالى منها صحراوى واقل سكانا من القسم
الجنوبى المطل على البحيرة ، وعاصمتها (ماو) . وكان عدد سكانها
وقتذاك يتراوح بين ستين الفا وثمانين ألفا معظمهم من القبائل الرحل من اولاد
سليمان وهى قبيلة عربية نزحت من طرابلس الغرب بعد ان دخلت في حوزة الاتراك
العثمانيين .

والى الشمال من بلاد (الكانم) يمتد اقليم (تبسى) وهى بلاد صحراوية تقع
على طريق غات - دارفور وتبلغ مساحته حوالى خمسين الف كيلو مترا مربعا ،
وهو اقليم فقير قليل السكان . وتبسى هو الاسم الذى اطلقه العرب عليها ، في
حين ان اهلها كانوا يسمونها (تو) Tou وهم ينتمون الى اصل بربرى .

والى الجنوب من تبسى يمتد اقليم (البرقو) وسكانه من نفس الأصل الذى ينتمى
إليه سكان تبسى ، والارض فيه اوفر غلة ، ويرتكز اقتصاد البلاد على التمر والتعام .
ويمكن اعتبار (تبسى) و (برقو) بمثابة واحتين تتصل تونس وطرابلس عن طريقهما
باقليم (واداي) بعد المرور بغدامس وغات .

اما (واداي) فهى اكثر هذه الدويلات اهمية بسبب كثرة السكان ، وهى ان
لم تكن كبيرة في حد ذاتها ، الا انه يمكن ان نضم إليها (الكانم) و (البرقو)
كدويلتين تابعتين لها ، وسكانها ينتمون الى مجموعتين رئيسيتين هما العرب والزنوج ،
ويسيطر العرب على القسم الشمالى منها ، في حين ينزل الزنوج الى الجنوب وهم
وثنيون . والسكان بصفة عامة يرعون الماشية والاغنام والماعز ويربون الخيول والابل
في الشمال .

وكان اهل (واداي) يعملون ايضا في تجارة الرقيق والعاج والصمغ وريش النعام ،

وكانت لهم تجارة رائجة ولهم علاقات تجارية وثيقة مع طرابلس التي كانت القوافل تحمل منها السلع الأوروبية التي كانت تصلها أيضا من طريق مصر ودارفور ، ولكن بعد سقوط دارفور في أيدي اتباع محمد احمد توقفت التجارة ، واتجهت بعد ذلك شطر نهر النيجر .

وكان سلطان (واداي) يفرض حكمه على كل المناطق الواقعة بين حدود دارفور الغربية والساحل الشرقي لبحيرة تشاد بطريقة مباشرة او غير مباشرة . وعاصمة السلطنة (أبشر) وهي مدينة كان عدد سكانها يتراوح ما بين مائتي الف وثلاثمائة الف نسمة .

وكان جيش (واداي) يتألف من عشرين الف مقاتل منهم ثمانية آلاف من الفرسان وهم القوة الرئيسية في الجيش ، وكان الجنود عموماً مسلحين بالبنادق (١) . وكان من الطبيعي أن تسعى دولة محمد أحمد وهي القوة الجديدة التي قامت على حدود (واداي) بعد انهيار السلطة المصرية ، الى الاتصال بسلطنة (واداي) التي كان يغلب عليها في الوثائق اسم (برقو) مع أن (برقو) لم تكن أكثر من دويلة صغيرة تابعة لها .

وكان سلطان (واداي) في ذلك الوقت يدعى محمد يوسف . وقد ضاق به محمد أحمد ذرعا لأنه لم يتخذ اى موقف ايجابي من دعوته ، بل اكتفى محمد يوسف بأن كتب بعد وفاة محمد أحمد الى خليفته عبد الله التعايشي بتصديقه للدعوة ، ويقال انه كان يتبع في ذلك نصيحة الشيخ محمد السنوسي الذي طلب منه ان يترك السودانيين وشأنهم ، والا يحاربهم الا اذا اعتدوا عليه (٢) . فقد قامت سياسة السنوسي على عدم الزج بتلك السلطنات في منازعات مع السودانيين او مع اعدائهم على حد سواء (٣)

1— Dujarric, G., la vie du Sultan Rabah, Paris 1902, p p. 71—75,

2— Cocheris, J., op. cit., p 338.

3— Dujarric, G., L'Etat Mahdiste du Soudan, Paris 1901, p. 246.

ولكن الثورات سرعان ما نشبت في دارفور ضد حكومة محمد احمد وخليفته ، وثبت ان الثوار كانوا على صلة بسلطان (واداي) محمد يوسف (١) . ولم يمنع حكومة ام درمان من تأديبه سوى نشوب ثورة أخرى في إقليم (دار المساليط) ، فلم تشأ ان تحارب في اكثر من جبهة ، فضلا عن ان نشاط الاوربيين في إقليم بحر الغزال أنقذ السلطان من بطش اتباع محمد احمد ، ولكنه في نفس الوقت بدأ يحس بخطر شديد يتهدد سلطنته من ناحية رابح الزبير .

واذا انتقلنا الى الحديث عن الدويلات التي كانت تقع الى الجنوب والى الغرب من بحيرة تشاد ، نجد سلطان (الباقرمي) ويدعى (مبانج) وكان يسيطر على الساحل الجنوبي لبحيرة تشاد ويمد سلطانه جنوبا حتى بلاد سوس .

وكان (البورنو) يحتلون الساحل الغربي للبحيرة ، وعاصمتهم (كوكا) وهي السوق الوحيدة في وسط افريقيا التي كانت تتعامل بريالات (مارياتريزا) الفضية . وكان عدد سكانها يتراوح ما بين خمسين وستين الف نسمة في دولة يبلغ تعداد السكان فيها خمسة ملايين . وكانت بلاد (الكانم) وبعض الدويلات الأخرى تخضع لها ، وان كانت تتفاوت فيما بينها في درجة الخضوع والتبعية .

وكان لشيخ (البورنو) جيش يتألف من ثلاثين الف مقاتل ، والجد الاكبر للأسرة التي حكمت البلاد هو الشيخ عمر فانقا الذي حكم من عام ١٨٣٧ الى عام ١٨٨٤ ثم خلفه اولاده ابو بكر و ابراهيم و هاشم على التوالي .

وفي عهد ابراهيم بن عمر فانقا ، وصلته رسالة من الخليفة التعايشي بتاريخ غرة ذي العقدة ١٣٠٢ هـ (١٣ أغسطس ١٨٨٥) ويبلغه فيها بأمر دعوة سيده محمد احمد ويطلب منه ان يزور ام درمان مع أهله ، وحمل هذه الرسالة مبعوث سوداني

٩ - الخليفة عبدالله التعايشي الى عثمان ادم (العامل على دار فور) ١٣ رجب ١٣٠٦ هـ (١٨٨٩-٣-١٥ م) المهدية ١١/١ ملف رقم ٤ وثيقة رقم ٣١٥

يدعى محمد عاطى بن محمد وقد عينه التعايشى مساعدا للأمير ابراهيم (١) .
ولكن ابراهيم توفي وخلفه اخوه هاشم الذى لم يعن بالرد على التعايشى بعد ان
ان باتت بلاد (البورنو) عرضة للتهديد المباشر من جانب راجح الزبير .

والى الغرب من بلاد (البورنو) كانت تمتد امبراطورية (السكوتو) غربا حتى
نهر النيجر ، وكان تعداد سكانها يبلغ عشرة ملايين نسمة ، وكان سلطانها في ذلك
الوقت حياتو بن سعيد . وقد تسلم حياتو هذا رسالة من محمد أحمد يعينه عاملا
عموميا على كافة بلاد جده عثمان فوديو . وقد رد حياتو عليه بأنه يعتزم زيارة
ام درمان ، ولما مات محمد أحمد طلب خليفته عبد الله التعايشى من ابراهيم بن عمر
فانقا ان ينضم الى حياتو وان يعاونه (٢) .

ولم يقف التعايشى من الاحداث التى كانت تدور في تلك السلطنات موقف
المتفرج ، اذ لا شك كان يهيمه استقرار الاوضاع على حدود بلاده الغربية ومعرفة
ما يجرى فيها . فلما نشبت الحرب بين راجح الزبير وسلطان البورنو طلب من عامله
على دارفور ان يبلغه باخبار القتال ، وان يتدخل بين الفريقين المتحاربين لوقف
التزاع بينهما ، وان يطلب من راجح الحضور الى ام درمان والدخول في طاعة
حكومتها (٣) .

وهكذا فان تاريخ هذه السلطنات الاسلامية يتصل بامبراطورية راجح الزبير
اتصالا وثيقا .

وراجح هذا هو أحد الذين نشأوا في بيت الزعيم السوداني الكبير الزبير باشا رحمت
الذى سيطر على اقليم بحر الغزال وكان يعمل في صيد الرقيق وبيعه ، وبعد ضم

-
- ١ - الخليفة التعايشى الى ابراهيم بن عمر فانقا غرة القعدة ١٣٠٢ (١٣-٨-١٨٨٥ م)
دفتر صادر الخليفة رقم ٣ ص ٦ وثيقة رقم ١٦
 - ٢ - الخليفة التعايشى الى ابراهيم بن عمر فانقا - نفس المصدر السابق
 - ٣ - الخليفة الى محمد خالد (عامل دارفور) ١٧ القعدة ١٣٠٢ (٢٩-٨-١٨٨٥) دفتر صادر
الخليفة رقم ٢ ص ١١٣ وثيقة ٣٥٤

الاقليم الى السودان في عهد الخديو اسماعيل ، استدعاه الى مصر حيث ظل محتجزا بها . وكان الزبير قد ترك في بحر الغزال ابنه سليمان الذى عمل رابح تحت قيادته واطهر مقدرة حربية عظيمة ، واراد الجنرال غردون الانجليزى وحاكم عام السودان في الفترة ما بين ١٨٧٧ — ١٨٧٩ ان يقضى على نفوذ سليمان الزبير فارسل إليه حملة بقيادة ضابط ايطالي يدعى (جسى) استطاع ان يضع يده على سليمان واعدمه ، ففر رابح مع قوة صغيرة قوامها ثمانمائة مقاتل منهم حوالى النصف مسلحون بالبنادق . وقد كانت هذه القوة على صغر حجمها نواة ذات شأن وخاصة في هذه المناطق التى يعتمد فيها السكان على الاسلحة البدائية . وظل رابح يضرب بهذه القوة الصغيرة لعدة شهور في المنطقة الواقعة الى الغرب من دارفور دون ان يخشى من جانب الادارة المصرية في الخرطوم ، التى شغلت عنه بقيام الحركة التى قادها محمد أحمد ، فضلا عن ان رابحاً كان يحترق مناطق لم تصل إليها يد الادارة المصرية من قبل (١) .

وكان في وسع رابح ان يأمن على حياته في غربي دارفور مع رجاله المسلحين بالبنادق ، وان يعيش على السلب والنهب والاتجار بالرقيق ، الا ان هذه البلاد سرعان ما نضبت ثرواتها ، ولم يعد فيها ما يشجع على البقاء ، ودارفور أصلا بلاد صحراوية ، والامطار فيها نادرة ولا تنمو فيها سوى الاعشاب على ضفاف الاخوار . ولم تكن هذه المنطقة الفقيرة تستطيع ان تمد رابحاً ورجاله بموارد كافية ولمدة طويلة ، فبدأ يتطلع الى الدويلات الاسلامية المجاورة ، التى كانت على شئ من التنظيم يؤهلها للدفاع عن نفسها ضد رانجا ورجاله . ولكن يبدو انه عقب مفاوضات تمت بين رابح و سلطان (البرقو) ، تخلى هذا الأخير عن بعض اراضيه المتاخمة لدارفور وذلك حوالى عام ١٨٨١ . وكان سلطان (البرقو) يهدف من وراء هذا التنازل الى تحقيق غرضين :

1 — Dujarric, G., La vie du Sultan Rabah, Paris 1902, p.25.

اولا : تحديد مجال النشاط امام جيرانه الجدد في نطاق المنطقة التي تخلى لهم عنها بناء على طلبهم .

ثانيا : ان هذه المنطقة يمكن ان تقوم بمثابة حاجز أو درع واق له من غزوات (الترك) أو المصريين اذا مافكروا في توسيع املاكهم ، وبذلك يصطدمون برابح قبل ان يمسوا ممتلكاته .

وفي ذلك الوقت تسلم رابح رسالة من محمد أحمد يستحثه فيها على الرجوع الى السودان وان ينضم إليه للجهد في سبيل الله . (١)

ولم يفكر رابح في الرد على هذه الدعوة ، ربما لأنه لم يكن يشارك اهل السودان آمالهم وحماسهم من اجل الخلاص من (الترك) ، وربما بكل بساطه لأنه لم يشأ ان يتخلى عن استقلاله . لذلك فقد فضل ان يقف على الحياد من حركة محمد أحمد ، وليس لدينا عنه في تلك الفترة سوى معلومات مبهمه وناقصة بل ومتناقضة في بعض الاحيان ، ولكن المعروف ان رابحاً كان وقت ان تلقى رسالة محمد أحمد ينزل في الأراضي الى تنازل له عنها سلطان (البرقو) .

وبدأ جيش رابح الصغير يقوى شيئاً فشيئاً ، ويزداد عددا من الفارين امام جيوش محمد أحمد ومن المغامرين ومن بعض الجنود السود النظاميين في الجيش المصري في السودان الذين انضموا إليه هرباً من محمد أحمد واتباعه ، وقد امدوه بقدر كبير من الاسلحة النارية.

ويبدو ان (رابحاً) لم يستقر طويلا في الأراضي الى حصل عايتها من سلطان البرقو فبدأ يتطلع الى الأنغماس في مغامرات جديدة في الجنوب حيث البلاد أوفر ثروة والسكان اضعف من ان يقاوموه بسبب ماحل بهم على ايدي تجار الرقيق او بسبب المنازعات القبلية الناشبة بينهم بصفة دائمة . لذلك اتجه الى غسزو (دارفريت) (وداربندا) ، فلم يكن مفر من ان يصطدم بمحاربي جماعة (السكراره) بقيادة

١ - نعم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته الجزء الثالث - القاهرة ١٩٠٣ ، ج ٣ ص ١٧٠ ، ٤٤٠

زعيمهم (بالي)، وقد انزل بهم رايح هزيمة كبيرة، وكان في وسعه ان يحتل بلادهم لولا أنه توقف في زحفه نحو نهر (الابوانجي) احد روافد نهر الكونجو بسبب قلة المؤن وخشية الا يجد مؤناً في الجنوب، فعمد الى تغيير طريقه واتجه شمالاً بغرب، وعبر نهر شارى ونزل على (دار رونقا) وقد حدث ذلك في عامي ١٨٨٣ - ١٨٨٤. ولم يستطع (السنوس بن بكير) سلطان دار رونقا ان يقف في وجه رايح الذي دخل عاصمة البلاد وتسمى (الكوتي) وتقع على مسيرة عشرين يوماً من (أبشر) عاصمة واداي. وادرك رايح انه لا يمكن ضم جزء آخر من البلاد واستغلاله الا اذا ضمن وجود شخصية الى جواره يكون لها تأثير كبير على الأهالي، لذلك فقد استدعى السلطان الهارب الى عاصمته واجبره على الاتفاق معه وعينه وكيلاً له وتزوج إحدى بناته، كما زوج ابنة أخرى له لأبنة الأكبر فضل الله. (١)

وبذلك ارتبط بالأسرة الحاكمة برباط المصاهرة واستطاع ان يوطد نفوذه في دار رونقا التي ظلت قاعدة لعملياته العسكرية ضد المناطق المجاورة الى ان غزا بلاد (الباقرمي) سنة ١٨٩٣.

وكان رايح في دار رونقا حين وصله كتاب من الخليفة عبد الله التعايشي ويعد هذا الكتاب وثيقة على جانب كبير من الأهمية إذ أجمل فيها الخليفة وقائع حركة محمد أحمد في السودان منذ ظهورها في جزيرة آبا وختم الخليفة كتابه بأن أشار الى انه من باب الشفقة على رايح فإنه يدعو لزيارة أم درمان، (٢).

وقيل ان رايحاً لما وصلته دعوة عبد الله التعايشي، استدعى أحد الفقهاء ممن كانوا في أم درمان، واستشاره في الأمر، ولكن الفقيه لم يتحدث بشيء، واكتفى بان تناول ديكاً وانتزع ريشه ثم قيد قدميه واطاح برأسه، فكان في ذلك إشارة الى ما ينتظر رايحاً اذا ما قبل الدعوة (٣).

1— Dujarric, G., op. cit., pp. 27—29.

٢ - الخليفة الى رايح فضل الله ٢٢ القعدة (٢٢ اغسطس ١٨٨٦) دفتر صادر الخليفة رقم ١٠ ص ٤٧ وثيقة ١٢٨

3— Ohrwalder, J., Ten Years' Captivity in the Mahdi's Camp, London 1895, p.258

ومع ذلك بزعم البعض ان رابحاً اتخذ من دعوة محمد احمد شعاراً له ، وكان يستخدم رايته (١) .

مهما يكن من أمر ، فانه اذا صح ذلك ، فلا بد ان يكون قد حدث في الأعوام الأولى حين خرج محمد احمد على السلطة القائمة في الخرطوم ، ولما بدأت انتصاراته تتوالى الواحد بعد الأخرى ، ربما فكر رابح في استغلال اسم محمد احمد ورايته في توطيد نفوذه — اى نفوذ رابح — في الغرب ، والدليل على ذلك انه عندما غزا (دار بندا) في عام ١٨٨٥ كان يرتدى جبة مرقعة تشبه ما كان يرتديه المقاتلون من اتباع محمد احمد (٢) .

ولم ييأس عبد الله التعايشى في محاولته اقناع رابح للقدوم الى أم درمان مع رجاله فكتب اليه ثلاث رسائل الأولى في ٣ جمادى الأولى ١٣٠٤ (٢٨ يناير ١٨٨٧) والثانية في ٢٢ شعبان ١٣٠٤ (١٦ مايو ١٨٨٧) والثالثة في ٢٨ شعبان ١٣٠٤ (٢٢ مايو ١٨٨٧) ، ويلاحظ هنا ان الفارق بين الرسالتين الثانية والثالثة لا يتعدى ستة أيام ، وقد بعث التعايشى مع رسالته الأخيرة الى رابح راية ليرفعها على نية الجهاد وجبة وبندقية (٣) .

ويبدو ان رابحاً كان يسير على نفس الخطة التى رسمها الشيخ محمد السنوسى لاتباعه وهى عدم تأييد حكومة ام درمان او الاعتراف بها ، وتحاشى الاشتباك معها في نفس الوقت ، ولهذا السبب فانه — خلافا لما اجمعت عليه المصادر — لم يمتنع رابح بتاتا عن الرد على التعايشى بل وفي بعض الاحيان كان يوهمه بأنه في طريقه الى زيارة ام درمان والدليل على ذلك ما جاء في كتاب التعايشى الى احد صحاله

١ - شقير : نفس المرجع ج ٣ ص ١٠١ ص ٤٤٠

2— Hill, R., A Biographical Dictionary of the Anglo. Egyptian Sudan, Oxford 1951, p p. 312 — 13

٣ - دفاتر صادر للخليفة رقم ١٠ ص ١٢١ ، وثيقة ٣٤٢ ، ورقم ١١ ص ١٧٦ وثيقة ٤٧٤ ، ورقم ١١ ص ١٧٩ وثيقة ٤٨٢

ويدعى حمدان ابو عنجه من أن « رابح تحرك من محله حاضرا وارسل لنا شخص...
لأجل ايصال محرراته وقد حررنا اليه ردها » (١) .

وهذا يثبت النتيجة التي توصلنا إليها وهي انه كانت هناك مكاتبات بين رابح
والخليفة، ثم جاء وقت حرم على عماله الاتصال برابح خشية ان يتحدوا معه ضده،
وفي نفس الوقت عني بتتبع اخباره واحواله وكلف عامله في دارفور ان يبلغه عن
تحركاته ، ورد عليه بأن المسافة بين رابح وحياتو بن سعيد قريبة وانهما متحابان
ومتصلان ببعضهما وأضاف ان « ديار باقرمه وما والاها في يد رابح (٢) » . وكتب
هذا الرد في ٢٧ شوال ١٣٠٥ هـ الموافق ٦ يوليو ١٨٨٨ وهذا يتعارض مع مذكره
المؤرخ الفرنسي الاستاذ (ديجارك) من أن رابحاً غزا بلاد الباقرمي عام ١٨٩٣ (٣).

وفي بداية عام ١٨٩١ عين الخليفة التعايشي ابن عمه محمود احمد عاملا على
دارفور ويبدو انه كان يسيء معاملته الجهادية وهم العساكر السود في الجيش
المصري ثم خدموا بعد ذلك في صفوف جيوش محمد احمد ، لذلك فانهم خرجوا
عليه في ٢٠ يوليو من نفس السنة وتمكن الف منهم من الفرار ، وعمد رابح الى
الاستفادة من هذه الحوادث ، فرحب بهم واصبحوا قوة ذات بأس تعمل تحت
امرته وخاصة انهم كانوا جميعا مسلحين بالبنادق، ولم تلبث الأمور ان ساءت في
دارفور ، واضطر اتباع محمد احمد الى الانسحاب منها ومع ذلك فان رابحاً لم
يسع لضمها إليه. (٤)

وقد بدأ أول اتصال او بمعنى ادق اول اصطدام بين رابح وفرنسا في مايو
١٨٩١ ، اذ تشكلت بعثة فرنسية عرفت باسم رئيسها (كرمبل) Crampel
بقصد استكشاف الأراضي الواقعة بين الاوبانجي رافد نهر الكونجو وحوض

١ - الخليفة الى حمدان ابن عنجه (بدون تاريخ) المهدية ٢٦/١ ملف رقم ٣ وثيقة ٢٧٩
٢ - الخليفة الى عثمان ادم العامل في دارفور (٢٧ شوال ١٣٠٥) (٦-٧-١٨٨٨) المهدية
١١/١ ملف ٣ وثيقة ١/٢٩٦

3— Dujarric, G., op. cit., pp. 49—50.

4— Ibid., p. 30, Ohrwalt, op. cit., p. 257,

شقيير : ج ٣ ص ٥٤٧

بحيرة تشاد ، وانشاء علاقات سياسية وتجارية مع زعماء البلاد ، على ان تعود الى الجزائر بطريق الصحراء .

وقد غادرت البعثة فرنسا في عام ١٨٩٠ ، ولقى (كرامبل) مصرعه مع اعضاء بعثته في مايو من العام التالى في مدينة (الكوتي) عاصمة (دار رونقا) وضاعت معهم خمسون بندقية سريعة الطلقات ، ومثل هذه البندقية في هذه الجهات تعادل كنزا ، كما ضاعت ايضا ١٧٥ بندقية عادية ، ١٢ مسدسا ، ثلاثة آلاف خرطوشة وثلاثمائة كيلو جرام من البارود داخل عشرة براميل ، وفي كلمة واحدة كان مع البعثة اسلحة وذخائر تكفى لفتح أفريقيا الوسطى كلها (١) .

ولسنا ندرى ما حاجة بعثة استكشافية ، هدفها اقامة علاقات سياسية وتجارية الى كل هذه الاسلحة والذخائر ما دامت ذات طابع سلمى ، الا اذا كان هناك غرض خفى يستهدف الاتصال ببعض الدويلات واستغلال المنافسات القائمة بينها ، وتسليح بعضها واثارته على البعض الاخر وذلك كله تمهيدا لتسرب النفوذ الفرنسى شيئا فشيئا الى هذه المناطق مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن نوايا البعثة لم تكن طيبة وانه كانت لها اهداف استعمارية بحتة .

ويقول بعض المؤرخين الفرنسيين : لا يوجد ما يمنعنا من الظن بأن رابحا هو الذى اصدر امره بالفتك ببعثة (كرامبل) بناء على توجيهات من سيده الشيخ محمد السنوسى ، اذ لاشك ان البعثة قد اقلقت بال الشيخ محمد السنوسى واتباعه الأقوياء الذين كان يسوءهم هذا التدخل الذى يضر بتجارته من ناحية ، فضلا عن ان عودة البعثة الى الجزائر بطريق الصحراء كان سوف يكشف امام الفرنسيين طرقا بقيت حتى ذلك الوقت سرا مغلقا (٢) .

اى ان احد اهداف بعثة (كرامبل) كان فتح الطريق امام الفرنسيين في الجزائر للوصول الى وسط افريقيا عبر الصحراء الكبرى .

1— Dujarric, op. cit., pp. 31—32,

2— Ibid., pp.32—33.

وكانت سلطنة (دار رونقا) التي استقر فيها رابح في الأصل تابعة لسلطنة واداي ذلك فان رابحا سعى للاعتراف بتبعية لسلطان واداي وذلك لمجرد صبغ سلطته بالصبغة القانونية . ولعل هذا مادفع المؤرخ الفرنسي الى الاعتقاد بان رابحاً كان يتبع الشيخ محمد السنوسي وانه اى رابح كان يتلقى اوامره من سلطان (واداي) الذي يتبع بدوره الشيخ السنوسي .

ولسنا نعتقد ان رابحاً كان من اتباع الشيخ السنوسي ، فقد كان معاديا لكل سلاطين الدويلات الاسلامية في افريقيا الوسطى ، وقد بدأت العلاقات تسوء بينه وبين سلطنة (واداي) حين اعدم رابح اعضاء السفارة التي اوفدها سلطان (واداي) كى يذكره بحقوقه في البلاد . ومع ذلك فقد قبل رابح في النهاية ان يدفع للسلطان بعض الجزية التي كان سلفه سلطان رونقا يلتزم بسدادها سنويا ، ومن المشكوك فيه انه كان يدفعها بانتظام او انه كان تابعا مخلصا لسلطنة (واداي) .

ولما بدا رابح يشعر في دار رونقا بان قوته التي تعتمد اساسا على السلاح والذخيرة بدأت تضعف ، ولما لم يكن في وسعه تصدير الرقيق والعاج الى الخارج عن طريق السودان الذى يخضع لحكومة عبدالله التعايشى خاصة بعد رفضه الدعوات المتكررة للقدوم الى ام درمان ، وبالتالى لا يستطيع استيراد السلاح والبارود عن هذا الطريق لذلك فانه تقدم الى سلطنتى (واداي) و (الباقرمى) يطلب السماح له بالمرور الى سوق مدينة (كوكا) عاصمة البورنو المشهورة ليحصل على حاجته من السلاح والذخيرة منها .

واحس سلاطين تلك البلاد بالخطر الذى بات يتهددهم من جراء ازدياد قوته فكان طبيعيا ان يقابل طلبه بالرفض ، وهنا عزم رابح على ان يشق طريقه بالقوة ، وقرران يبدأ بالباقرمى لقصر الطريق من ناحية ولسهولة التغلب عليهم من ناحية اخرى . وهنا ارسل السلطان (مبانج) زعيم الباقرمى الى الشيخ هاشم بن عمر فانقا سلطان (البورنو) يطلب منه العون ضد الغازى الحديد ، ولكن الشيخ عمر لم

يدرك فيما يبدو ما يمكن ان يترتب على غزو بلاد الباقرمى من نتائج خطيرة بعيدة المدى بالنسبة للبورنو في المستقبل ، فرفض الاستجابة لطلبه .

واخذ رايح يتلمس ذريعة لغزو بلاد الباقرمى ، فادعى ان السلطان (مبانج) آوى عنده احد اعداء رايح الالءاء وهو شقيق سلطان (واداي) ولعل هذا ما دفع سلطان واداي لأن يهب لنجدة الباقرمى ، وتقدم رايح الى (مينهفا) Mainheffa على نهر شارى حيث استبسل الباقرميون في الدفاع عن بلادهم ، وقد دفع يوسف سلطان واداي بفرقة الى ميدان القتال ، ولكن رايحا مزقها لربا ، وانتهز (مبانج) سلطان الباقرمى هذه الفرصة ، وغادر (مينهفا) الى عاصمته (مسينيا) Massénya ،

بيد ان رايحا لم يترك له الفرصة لاعادة تنظيم قواته . وبعد سلسلة من المعارك انتصر رايح على الباقرمى ودانت له البلاد ، ولكن الاحتفاظ بسلطته عليها كان يتطلب منه وضع حاميات بها ، لذلك فانه عقد مع سلطان السوكوتو حياتو بن سعيد اتفاقية تم بمقتضاها وضع الأراضي التابعة للباقرمى والواقعة غربي بحيرة تشاد تحت سلطة حياتو ، وبذلك اقتسم رايح وحياتو السيادة فوق بلاد الباقرمى (١) .

وبعد ذلك لم يكن هناك مفر من اصطدام رايح ببلاد البورنو ، ولم يكن في استطاعة اهلها الدفاع عن انفسهم ضد عدوشديد البأس مثل رايح فاصيبوا بالهزيمة وفر السلطان الى عاصمته (كوكا) فطرده رايح منها وغادر عاصمته في ديسمبر ١٨٩٣ بعد ان أشعل فيها النيران .

وتطلع اهالى البورنو للتأثر من رايح لما حل بهم على يديه من تخريب وتدمير واحراق عاصمتهم (كوكا) التي كانت تعد اكبر اسواق وسط افريقيا التجارية، فثاروا على هاشم بن عمر لتخاذله وضعفه وعزلوه ، وولوا مكانه ابن اخيه (بكرى) الذى سارع الى جمع قوات جديدة واستئناف القتال ولكن رايحا هزمه واسره واعدمه في عام ١٨٩٤ . وبعد هذا النصر ، عاد - رايح الى مقر حكمه حيث نصب نفسه سلطانا على البورنو والباقرمى .

1— Ibid., pp. 49— 50.

وكان لابد ان يتجه رابح الى تخطيط كل التنظيمات المحلية ، غير أنه على العكس من ذلك أبقي الرؤساء القدامى في مناصبهم ليقوموا بدورهم التقليدى بالوساطة بين الحاكم والمحكومين ، ووضع معهم في نفس الوقت قواده الموالين له ليكونوا عيوناً يرقبون اعمال الحكام وبذلك أبقي على النظام الاقطاعى السائد في بلاد البورنو ولكن السلطة المركزية كانت تمتد نفوذها على جميع انحاء البلاد .

وكان رابح يحتفظ لنفسه بنصف الضرائب التى جمعها من هذه الامبراطورية الواسعة ، ويقسم النصف الاخر بين الحاكم الاقليمى والقائد العسكرى الذى يقيم معه ليكون عيناً عليه (١) .

ومنذ عام ١٨٩٤ ، بدأ رابح يعد العدة لضم بلاد (السكوتو) الى امبراطوريته الجديدة ، وكانت هذه البلاد تعتبر اغنى مناطق افريقيا الوسطى بفضل موقعها الجغرافى ومركزها التجارى الهام .

وفي نفس الوقت بدأت انجلترا تفكر في الاتصال برابح لمقاومة اى توغل فرنسى في اتجاه وادى النيل بطريق كردفان ودارفور (٢) . وكانت انجلترا قد عقدت مع المانيا اتفاقية في ١٥ نوفمبر ١٨٩٣ حول نيجيريا والكمرون ادخلت بمقتضاها ممتلكات رابح داخل مجال النفوذ الالماني ، ومع ذلك فان الانجليز كانوا يشكون في قدرة الالمان على توطيد نفوذهم في تلك الانحاء امام التوغل الفرنسى ، ولهذا السبب فكروا في استخدام رابح ، فلما ابلغ لورد روزبرى رئيس الوزراء ووزير خارجية انجلترا السفير الالماني في لندن (هاتزفيلدت) Hatzfeldt في ١٨ ديسمبر ١٨٩٣ بمشروع الاتصال برابح ، اعتبر الالمان ذلك بمثابة تنصل من بريطانيا لوعدها في اتفاقية لم يمحض على توقيعها خمسة اسابيع ، وجاء رد الفعل سريعاً

1— Ibid., p. 60.

2— Sanderson, G.N, England, Europe and the Upper Nile, 1882-1899, Edinburgh 1965, p.106.

بأن وقعوا مع فرنسا بروتوكول ٤ فبراير ١٨٩٤ الذى اعطى لفرنسا مخرجا الى النيل، اذ ان الاتفاق الانجلو- الماني كان قد تخلى للألمان عن الارضى الواقعة الى الشرق من بحيرة تشاد والكمرون حتى الحدود الغربية لدارفور وكردفان وبحر الغزال . فلما تخلى الالمان للفرنسيين في فبراير ١٨٩٤ عن الباقرمى ووادى كان معنى ذلك انهيار الحاجز الذى عول عليه الانجليز للحيلولة دون وصول الفرنسيين - اذا ما اتفقوا مع رابح - الى وادى النيل (١) .

وقد حملت العروض البريطانية بعثة صعدت في نهر بنوى احد روافد نهر النيجر ، وكانت تضم رسالة الى رابح من سيده السابق (الزيرير باشا رحمت) تحذره من الاخطار التى تحيق به من وراء غزوبلاد السكوتو ، ويبلغه ايضا ان حكومة جلالة ملكة بريطانيا تقبل ان تعقد معه اتفاقا وديا . ومن المحتمل ان يكون هذا الخطاب مع خطابات لورد (روزبرى) قد وصات رابحاً حوالى نهاية عام ١٨٩٥ ، ولكن ليس هناك اى اثر لاشعار باستلامها (٢) .

وقيل ان الانجليز كانوا يفكرون في فرض حمايتهم على رابح وامداداه بالاسلحة في مقابل ان يباغت دولة الخليفة التعايشى في السودان بالهجوم من ناحية الابيض عاصمة كردفان ، في نفس الوقت الذى تزحف فيه القوات الانجلو- ايطالية من مصوع او سواكن على ام درمان . وفي النهاية يكافأ رابح على جهوده بمنحه امبراطورية واسعة تمتد من اعالى النيل حتى نهر النيجر يكون له السيادة فيها تحت الحماية البريطانية (٣) .

مهما يكن من أمر فإنه فيما يبدو لم يكن الانجليز وحدهم هم الذين تدخلوا في مشروعات رابح ، فانه في الوقت الذى كان يستعد فيه للزحف على كانوا عاصمة

1— Ibid., p. 108.

2— Ibid., p. 113 (Footnote)

3— Pensa, H., L'Egypte et le Soudan Egyptien, Paris, 1895, pp. 374—5.

الهوسا ، كانت دولة الكونغو الحرة تفكر ايضا في استخدام رابح . فقد ارسل عاھلھا الملك البلجيكي (ليوبولد الثاني) بعثة بقيادة (هانوليه) Hanolet ،

كان من اھم اھدافھا الاتصال بالسوسى بن بكير سلطان دار الكوتي او اذا امکن الاتصال بسيدھ رابح بأمل استخداھه للعمل ضد السودانيين وفتح طريق الى نقطة على اعلى النيل بالقرب من فاشودھ عن طريق دار فريت وبحر الغزال ومشروع الرق . ولكن الامراض ونقص المؤن أدت الى انسحاب بعثة (ليوبولد) في اغسطس ١٨٩٤ وقت ان كانت متجهة الى نھر شارى قبل ان يتم اى اتصال فعال مع رابح (١) وان كان البعض يزعم أنه دارت مفاوضات بين رابح والبلجيكيين انتهت الى نتيجة مقبولة بحيث لم يعودوا بعدها في قلاتى على عملياتهم العسكرية في تلك المناطق .

غير ان المؤثرات التى كانت تتعرض لها امبراطورية رابح الزير سرعان ما تغيرت فان فرنسا عقدت مع دولة الكونغو الحرة اتفاقية ١٤ أغسطس ١٨٩٤ التى تعهدت فيها الكونغو بألا تمارس في المستقبل اى عمل سياسى الى الشمال من خط عرض ٥/٣٠ ° وبذلك فقد البلجيكيون اتصالهم برابح ، وفي نفس الوقت بدأت امبراطوريته تدخل في دائرة الاطماع الفرنسية ، فان الاتفاق الفرنسى - الكونغولى اتاح لفرنسا مخرجا الى وادى النيل لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة - طبقا لرأى (دى برازا) الذى كشف الكونغوالفرنسية « لتسوية المسألة المصرية طبقا لرغباتنا » (٢). اذ كانت القاعدة التى سيطرت على السياسة الفرنسية هى فكرة التوسع الاستعمارى من المحيط الاطلسى الى النيل ، ولكن تنفيذ هذه العملية كان من الصعوبة بمكان نظرا للتردد والبطء اللذين اتسمت بهما السياسة الفرنسية ، وتوزيع الجهود وبعثرتها

1— Sanderson, G.N., op. cit., p. 128.

2— Darcy, J., France et Angletérre, Cent Années de Rvialité Coloniale, Paris 1903 p. 389.

في اتجاهات مختلفة وخاصة في اتجاه بحيرة تشاد مركز امبراطورية رابع ، هذا فضلا عن ضعف الوسائل والامكانيات التي وضعت تحت تصرف الضباط .

وفي الحقيقة اعتبارا من عام ١٨٩٠ بدأت فرنسا تنجذب مغناطيسيا نحو بحيرة تشاد ، وبات لكلمة (تشاد) وقع السحر في نفوس الفرنسيين فخرجت بعثات عديدة نحو هذه المنطقة ذات الجاذبية الشديدة (١) ، فلم يقتصر الامر على بعثة كرامبل التي لم تكن الا واحدة من عدة بعثات بقيادة (شوليه) Cholet ، (فورنو) Fourneau ، (دبوسكى) Dybowski ، (ميستر) M aistre ، (كلوزيل) Clozel (٢) .

ووقف احد اقطاب الحركة الاستعمارية في فرنسا (المسيو دى لونكل) في الجمعية الوطنية الفرنسية في جلسة ٢٨ فبراير ١٨٩٥ يقول : ان تقدم فرنسا نحو بحيرة تشاد واعالى الاوبانجى (رافد الكونغو) واعالى النيل لايقوم على اساس الاستقرار في تلك المناطق لانها غير صحية ، بل ان الهدف هو الضغط على البريطانيين في اية مفاوضات مقبلة لاجبارهم على احترام وعودهم بالخلاء عن مصر (٣) .

وهكذا بات رابع بمثابة عقبة كبرى في طريق الاستعمار الأوربي في افريقيا الوسطى ، واقلق بقوته وطموحه بال الدول الاستعمارية وفرنسا بصفة خاصة (٤).

ولم تكن انجلترا لتغفل لحظة عن المشروعات الفرنسية، إذ لما اجتمعت اللجنة الانجلو - فرنسية المنوط بها تخطيط اراضى النيجر في اوئل شهر نوفمبر ١٨٩٧

1— Cocheris, J., op. cit., pp. 453—4.

2— Sanderson, G.N., op. cit., p. 122.

3— Darcy, J., op. cit., p. 390,

4— Dujarric, G., op. cit., p. 70,

طالب الفرنسيون بفتح باب المناقشة حول السواحل الشمالية والشرقية لبحيرة تشاد لضمها الى فرنسا (١) .

وقد اهتمت انجلترا اهتماما شديدا بهذا الموضوع لأن الأراضي الواقعة الى الشرق من بحيرة تشاد ذكرت لأول مرة في مفاوضات رسمية ، فاعلنت انه يمكن تنظيمها بطريقة تمنع اى توسع في اتجاه النيل (٢) .

واستمرت المفاوضات بين السفير البريطاني في باريس (سير ادوارد مونسون) Monson ووزير الخارجية الفرنسية (جبريل هانوتو) Hanotaux

عام ١٨٩٨ ، وعرضت الحكومة البريطانية ان تعترف بمطالب فرنسا الى الشرق من بحيرة تشاد في مقابل اعتراف الفرنسيين بمطالب انجلترا في حوض النيل ؛ ولم يقتنع الفرنسيون طبعاً بهذه المبادلة ، اذ ان المناطق الواقعة الى الشرق من بحيرة تشاد كانت وسيلة لتحقيق غاية وهى الوصول الى النيل ، وليست غاية في حد ذاتها.

واضطرت فرنسا في النهاية الى قبول التوقيع على اتفاقية ٢١ مارس ١٨٩٩ مع انجلترا التى تحدد فيها النفوذ الفرنسى الى الشرق من بحيرة تشاد ، فتعهدت فرنسا بالا تسعى للحصول على اراض او تمارس اى نفوذ سياسى الى الشرق من خط يبدأ من جنوب طرابلس الغرب ويمتد الى نقطة اتصال مدار السرطان مع خط طول ١٦° شرقاً ويضم تبستى والبورنو، ويمر بطريقة غير واضحة فيما بين وادى دارفور ثم يتبع خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو وبذلك تم اخراج فرنسا من حوض النيل كله (٣) ، ونالت وادى والمناطق الواقعة بين دارفور شرقاً وبحيرة تشاد غرباً .

1— Hanotaux, G., Fachoda et les Negociations Africaines, Paris 1906, p.119.

2— Egypt No. 2 (1898) Monson to Hanotaux, Paris 10—12. 1897, p. 1.

3— Cocheris, op. cit. p p. 499—500

وبات امام فرنسا الان ان تعمل على توطيد نفوذها في تلك الاراضى (غير الصحية) في منطقة تشاد والباقرمى ووادى وكانم وتبستى والبورنو التى كانت في الأصل وسيلة لتحقيق غاية كبرى وهى الوصول الى النيل ، ومع ذلك فان احتلال هذه البلاد يعد بمثابة تنويع للعمل الذى بدأته الحكومة الفرنسية منذ وقت طويل لتوصيل الجزائر بمستعمرة الكونغو الفرنسية (١) .

وقد بدأت فرنسا بوادى ، وكان سلطانها يوسف مستقلا تماما ، وقد حاول رابع في عام ١٨٩٥ ان يقيم معه علاقات ودية ، فأرسل له قافلة محملة بالهدايا ، ولكن سلطان وادى لم يرد على هذه العروض ، ربما لأنه كان يعتبر رابحا بمثابة منافس خطير ليس من المصلحة مهادنته ، اوربما لأنه كان يتلقى الأوامر والتوجيهات من الشيخ السنوسى وحده .

وقد اهتمت فرنسا بايفاد بعثة بقيادة (جنتى) Gentil بهدف حفظ الأمن في بلاد الباقرمى التى وضعت تحت حمايتها ، وقد وصلت البعثة الى عاصمة البلاد (مسينيا) ، ولم تكن تقصد الاشتباك مع رابع بقدر ما كانت تهدف الى تهديده وارهابه ، فضلا عن انه كان لها هدف سياسى آخر ، وهو الدخول في علاقات مع سلطان وادى الذى لم يسبق لفرنسا ان دخلت معه في علاقات مباشرة من قبل توطئة لاحتلال بلاده . ويتحدث البعض عن محاولات بذلتها الدولة العثمانية للاتصال بسلطان وادى . فقد اشارت الصحف العثمانية في سبتمبر ١٨٩٩ الى ايفاد بعثة من طرابلس الغرب إلى (أبشر) عاصمة وادى تحمل وساما من السلطان عبد الحميد الى سلطان وادى وقيل ايضا ان الاتراك العثمانيين احتجوا على الاتفاقية الانجلو - فرنسية بتاريخ ٢١ مارس ١٨٩٩ ، فلما رفض احتجاجهم قرروا ان يبدأوا نشاطهم من فران نحو وادى ، وراجت الشائعات بان رابحا بات

1— Dujarric, G., op. cit. p. 98.

يدين بالولاء للباب العالي . ويحدث أحد المؤرخين الفرنسيين فيقول : « ونظرا لأن واداي كانت البلد الوحيد الذي لم يخضع يوما لرابح ، فقد كان لابد لنا من الدخول في مفاوضات مع رئيسها ، وهذا هو الهدف من وراء بعثة (جنتي) ، اذ لم يكن في وسعنا ان نتنظر حتى يخضع سلطان واداي لهجمات رابح أو للنفوذ العثماني (١) » .

ولم يكن بد من ان يصطدم الفرنسيون برابح الذي كان يسيطر على الاراضي التي اعترف لهم الانجليز بحقوقهم فيها وفقا لاتفاقية ٢١ مارس ١٨٩٩ ، وقد دفع الفرنسيون ثمنا غاليا مقابل انتصارهم عليه ، بعد ان ظهر عليهم في عدة وقائع . وانتهى الأمر بتجريد حملة قوية بقيادة (الكونت لامي) — الذي سميت باسمه عاصمة تشاد فيما بعد (فررلامى) — وقد استطاع تشتيت شمل قوات رابح في ٢١ إبريل ١٩٠٠ في موقعة دموية استبسل فيها المسلمون ولم تجد البسالة شيئا امام الأسلحة الحديثة . وقتل في تلك الموقعة كل من رابح الزبير والكونت لامي (٢) . . وكان نصرا غاليا كلف الفرنسيين الكثير من المال والجهد .

1— Ibid., p. 110.